سلطة الفعل الكلامي من خلال رسائل الإمام "علي بن أبي طالب"

أ/ دراجي صافية
جامعة- بجاية -

االملخص:

تعتبر أفعال الكلام القطب المحوري الذي تدور في فلكه جل المقاربات التداولية.وقد تبلورت معالم هذه النظرية في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين كمرصد بحث يهتم بفلسفة اللغة، ويعتبر الفيلسوف الإنجليزي "أوستين" Austin المؤسس الأول لنظرية أفعال الكلام. إذ أن الأقوال حسبه أفعال ذات صبغة اجتماعية تتحقق وفق معطيات سياقية. علما أن نظرية الفعل الكلامي تنبني وفق إستراتيجية المقاصد التي تحدد قيمتها الدلالية، وتساهم في تفعيل وإنجاح عملية التواصل.

نص المداخلة

وسننظر في هذا البحث في كيفية تجلي خطاب الترسل عند الإمام "**علي بن أبي طالب**" من خلال هذه الأفعال ذات الصبغة المؤسساتية، محاولين من خلال هذه النظرية وصف رسائل "علي" ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية والتواصلية، كون الأفعال الكلامية عبارة عن نظرية لغوية ــ فلسفية ــ دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية.

سلطة الفعل الكلامي من خلال رسائل الإمام "علي بن أبي طالب" :

تعتبر أفعال الكلام القطب المحوري الذي تدور في فلكه جل المقاربات التداولية.وقد تبلورت معالم هذه النظرية في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين كمرصد بحث يهتم بفلسفة اللغة، حيث صنف "**هانسن**" **Hansson** أفعال الكلام سنة **1974** باعتماد اشتغالية مصطلح السياق ضمن تداولية الدرجة الثالثة، والتصنيف ذاته

أقرت به "**أوركيوني**" **Orecchioni** ،والمنحى نفسه نهجته "**أرمنيكو**" **Armingaud** في كتابها **La pragmatique** المقاربة التداولية.

ويعتبر الفيلسوف الإنجليزي "**أوستين**" **Austin** المؤسس الأول لنظرية أفعال الكلام. إذ أن الأقوال حسبه أفعال ذات صبغة اجتماعية تتحقق وفق معطيات سياقية. علما أن نظرية الفعل الكلامي تتبني وفق إستراتيجية المقاصد التي تحدد قيمتها الدلالية، وتساهم في تفعيل وإنجاح عملية التواصل*.

وسننظر في هذا البحث في كيفية تجلي خطاب الترسل عند الإمام "**علي بن أبي طالب**" من خلال هذه الأفعال ذات الصبغة المؤسساتية، محاولين من خلال هذه النظرية وصف رسائل "علي" ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية والتواصلية، كون الأفعال الكلامية عبارة عن نظرية لغوية ــ فلسفية ــ دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية.

وحوار الرسائل وعلى الخصوص الكتابات الديوانية ــ الرسمية في مجمله يخضع لمعيار التوجه المباشر لما تستدعيه ظروف التواصل الإبلاغي، إلا أن بين طيات فن الكتابة عامة نصادف أشكالا من المضامين الخفية والتلاعبات اللغوية التي قد يسهل وقد يصعب اكتشافها.

تتحدد سلطة أفعال الكلام ــ في توجهها المباشر وغير المباشر نحو المتلقي من خلال المؤسسة التي تنجز فيها، يتحكم فيها كشروط تأسيسية مفروضة، مكانة المتكلمين، ورتبتهم ودرجاتهم في السلم الاجتماعي، والثقافي، والسياسي. وهي في هذا المقام سلطة أمرية بالنظر إلى الأفعال الكلامية الشاملة، حتى وإن تعددت الأفعال الكلامية «وعلامة القوة الكلامية تتعلق بظهور السياق والوضعية الكلامية بوضوح، أي أن الشروط الأساسية متوفرة»[1]، وبالنظر إلى مقام توفر هذه الشروط يتحدد هذا الخضوع لنصوص "نهج البلاغة" الترسلية إلى فعل كلامي واحد هو الأمر ما يقر بالتعالي، فهي أفعال صادرة عن

---

* هناك من يقترح ـ نظرا لدور المقاصد وقيمتها في هذه النظرية ـ ترجمة **la pragmatique** بعلم المقاصد. من بينهم: د محمد لطفي الزليطني، د منير التريكي في مقدمة الترجمة التي وضعاها لكتاب: تحليل الخطاب للثنائي: براون ويول.

[1] J.R .Searle, les actes de langage, essai de philosophie du langage, collection savoir;
harmann , Paris, 1972, p. 27 p 110

خليفة تجاه من هم أقل منه رتبة ودرجة، وإن كان المرسل ذاته "الإمام علي" يخضع بدوره إلى سلطة أمرية قوية هي سلطة الواجب الديني والامتثال الرباني. وفعل الأمر كما يقول "**ديكرو**"**O.Ducro** يتطلب نوعا من العلاقة الترتيبية بين الذي يأمُر والذي يؤمر، أي تكون هناك إمكانية تقديم الأوامر مع القصد الأساسي للإثبات[1] .

وإن كنا قد استخلصنا من بعض العينات ردود فعل المتلقي، التي تكشف لنا محاولته في الارتفاع بنفسه إلى مستوى الآمر، باستخدامه لأفعال مكافئة في شدتها لأفعال الخليفة بسبب تفاعل خطاب التمرد الواضح والمسيطر على الواقع السياسي، برفض المخاطب في هذا المقام الاعتراف بخلافة الإمام "**علي**"، حتى و إن لم يكن الحوار صريحا في الرسائل لغياب خطاب المتلقي الواقعي، ولكن مظاهر التواصل تثبت ردود أفعال المتلقي. فالأقوال كما يقول "**أوستين**" أفعال ذات صبغة اجتماعية تتحقق وفق معطيات سياقية.

يفعَل المرسل خطابه بطاقة أمرية قوية تحدد رتبته كخليفة وبأسلوب متفرد يجمع بين الكلمة الشعرية والوظيفة التبليغية ذات التوجه التربوي بأوامر إلزامية، علما أن الكتاب في صدر الإسلام ــ وعلى الخصوص الخلفاء الراشدون ــ لا يقصدون إلى تنميق أوتزويق، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدلالة إذ كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم في لغة جزلة متينة[2]. ولكن "علي بن أبي طالب" مختلف عمن سواه، بشهادة فطاحن البلاغة والفصاحة قديما وحديثا، فلا يتحكم في لغته الجزالة والمتانة فقط إنما هي ضرب من المقدرة اللغوية. إنه ليس رجل سياسة فقط إنما هو قبل ذلك «الإمام في الأدب كما هو الإمام فيما أثبت من حقوق، وفيما علم وهدى، وآيته في ذلك "نهج البلاغة" »[3] .

بعث "الإمام علي" برسائل لمحاوريه الغائبين مفعَلة سلطته الأمرية، كان يهدف إلى التأثير في المخاطبين بتغيير الواقع المفعم بالاضطراب، من خلال أوامر صريحة بأدوات مخصصة لهذا الغرض، وبأوامر تختفي وراء أساليب الترغيب والتنبيه والتمني.

---

[1] O.Ducrot, Dire et ne pas dire, Principe sémantique linguistique, Collection savoir – sciences, Hermann, Editeur de science des arts, 3éme édition, Paris,1991, p 9.

[2] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط7، دار المعارف، مصر، ص98.

[3] روائع نهج البلاغة، الامام علي بن أبي طالب، تحق جورج جورداق، دار الشروق، بيروت ـ القاهرة 1975، ص.ص 7، 8.

واستنباط مفعولها الأمري يرتكز على تحديد المقاصد، وفهم حدث ما على أنه فعل يعني ربطه بالمقاصد والغايات ــ كأبعاد تداولية لنظرية أفعال الكلام ــ ينبني وفقها الخطاب الذي يتفاعل في إطار مقامي محدد، يحاول الفعل الكلامي من خلاله تغيير العالم أو تحريكه بالتأثير فيه ــ كما يرى بذلك "**فان دايك**" ــ ويستلزم هذا التحريك تحول الاتزان إلى لا اتزان، أو اللااتزان إلى اتزان. ولأن واقع إنتاج هذا الخطاب يقر بالواقع اللااتزاني، حيث كان يعج بمظاهر التمرد والعصيان وأشكال الاضطراب والفتن. ويهدف الخطاب إلى التأثير بواسطة فعل كلامي صريح مباشر هو الأمر، وعلى فعلين تابعين غير مباشرين يختفيان تحت غطاء سلطة الأمر وهما خطاب النصح والإرشاد، وخطاب التهديد والوعيد.

أما خطاب النصح والإرشاد فلأن "عليا" لا يستخدم سلطة الأمر الزجرية إلا بعد اقتضاء الموقف، فهو رجل الحكمة الذي يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يحب»[1]. فكانت التزاماته مع ولديه مثلا ومع الرعية، وحتى مع الولاة ــ باستثناء الخصوم ــ كتابة حوارية، وسلطة أمرية لما اقتضاه التعالي بين المرسل والمرسل إليه، إلا أن روحها تثبت معاني الخير لما تحمله من قيم دينية وإنسانية سامية، تتمظهر من خلال ما يسميه "**أوستين**" بأفعال السلوك والمتعلقة بالتصرفات والسلوك الإجتماعي[2].

يقول في الرسالة التي بعثها إلى أحد عماله على "أذربجان": «وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تقتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال ــ الله عز وجل ــ وأنت من خزانه حتى تسلمه إلي ولعلي ألا أكون شر ولا تك لك والسلام»[3].

إن الرسالة رغم قصرها تبعث بفعل إلزامي وقول إنجازي مفاده (احفظ الأمانة)، ويدخل هذا في سلسلة الأفعال الكلامية غير المباشرة التي تحدث عنها "**سورل**"، الذي يقر بأن الأساليب التي تدخل في نمط الأفعال الكلامية غير المباشرة أضحت أعرافا في لغات

[1] علي محمد محمد الصلابي، أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ شخصيته وعصره، دط، دار الإيمان، الاسكندرية، 2003، ص230.

e c’est faire, traduction Gilles Lane, Edition du SEUIL, Paris, 1970 p 161

[3] نهج البلاغة ـ خطب ورسائل وحكم علي بن أبي طالب، تحق وتثب صبري إبراهيم السيد، تقد عبد السلام محمد هارون، دط، مكتبة رحاب، الجزائر، ص202.

عدة. وفسر ذلك انطلاقا من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمستمع، وأخيرا قدرة المستمع على القيام باستنتاجات، فبعد أن يمر المتلقي على سلسلة من الاستنتاجات انطلاقا من البنية وصولا إلى المحتوى والمقصد يدرك قيمة الفعل المتمثل في الأمر. إن شكله يوحي بأنه كلام تقريري ينعدم فيه التصريح المباشر في إطلاق الأوامر وتثبيت النواهي، مستهلة بأسلوب تأكيدي ما يوثق إنجازية الفعل. ولكن ولأن الكلام يخرج على مقتضى الحال والعلاقة القائمة بين أقطاب الإرسال هي علاقة أمير بمأمور، يثبت لدينا أن النفي مثلا في قوله السابق «ليس لك أن تقتات في رعية» معناه أحذر أن تقتات في رعية كفعل كلامي غير مباشر استدعاه موقف اللين في المعاملة، وإن تمظهر في شكل نفي (وليس هي أداة نفي)، وهو المعنى الذي يراه "**السكاكي**" في الطلب. إذ حد الخبر ما يصلح أن يصدق أو يكذب وحد الإنشاء (الطلب) ما لا يصلح أن يقال لصاحبه أنه صادق فيه أو كاذب.

وحسب "**سيرل**" هذا الفعل الكلامي غير المباشر لا ينجز عملا لغويا واحدا بل اثنين:

عملا أوليا يتمثل في الأمر، يُنجز بواسطة عمل ثانوي هو النفي. والمقصد من الفعل الكلامي، أي العمل الذي ينوي القائل إنجازه ــ «وحين نقول شيئا ما فإننا ننجز شيئا ما»[1] ــ بواسطة جملته إنما يتصل فقط بالعمل الأولي وهذا المقصد هو الذي ينبغي تبنيه، أي الأمر بالحرص على مصالح الرعية. يتأكد من خلال ما يتبعه من إنشاء مجسد في أسلوب النهي «ولا تخاطر إلا بوثيقة» كفعل كلامي مباشر وصريح.

وسواء تحقق الفعل في الواقع أو لم يتحقق تظل إنجازية أفعال الكلام متحققة ما دامت شروط النجاح المتمثلة في القواعد التأسيسية المثبتة بمجرد التلفظ قائمة، والآمر موجود وهو في وضع يسمح له بإصدار هذه الأفعال الكلامية «وجميع الأفعال التي غرضها حمل المخاطب على القيام بفعل ما يكون من شروطها المعدة قدرة المخاطب على القيام بذلك الفعل... وكلما أدى الفرد فعلا كلاميا فإنه يعبر بذلك عن حالة نفسية تجاه القضية المُعبّر عنها، فمثلا «من يقرر فهو يعبر عن اعتقاد، ومن يعد فهو يعبر عن نية، ومن يصدر أمرا فهو يعبر عن رغبة أو إرادة»[2].

[1] Austin, Quand dire c'est faire, p 47

[2] طالب هاشم طبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع: 98 - 99، 1992، ص70.

عمد المرسل "علي بن أبي طالب" إلى طريق اللطف في توجيه الخطاب التعاملي، رغم يقينـــه بأن سلطتـــه تخـــول له استخدام الأمر المباشر والذي سيأخذ بعين الاعتبار، أما إن حدث ولم يستجب المأمور فإنه سيعاقب، ولكن الإمام "علي" فضل التعامل بحكمة وروية، فهو لا يقصد، ولم يقصد إلى اتهام الوالي، إذ لم يثبت منه السوء، ولكنه يعمد إلى النصح والإرشاد، والأمر المختفي وراء قناع هذا النصح والإرشاد يقتضي التحذير من مغبة خيانة الرعية، وخيانة أمانة الأمة.

ناهيك عن سلطة القداسة والقيم الدينية التي تقدس الحرية وتأمر بالتواضع كون الناس في الحقيقة سواسية لا أمير ولا مأمور، وتعطي لكل ذي حق حقه.

إن العامل المسترعى يدرك أن بيديه مال من مال الله ــ عز وجل ــ وهو من خزانه، فلا يحتاج مقام الترسل الديواني إلى تقرير هذه الحقائق. لو لم يكن المرسل يقصد من ورائها إلى إنجازيـــة محددة تقتضي بإخضاع الواقع للغة بقوله الذي انبنى وفق صيغة التحقيق «حتى تسلّمه إلي»، ليمتزج مقام إعطاء المعلومات ووصف الواقع الذي يتحرك فيه بحركة التعبير لتركن الدلالة المستخلصة من خلال مقاصد المرسل والسياق العام الذي ثبت فيه إلى غرض آخر اقتضاه المعنى القيمي للعبارة وهو دائما ركون إلى التحذير بإرسال غير مباشر مفاده «احرص على أموال المسلمين، هي أمانة في عنقك إلى أن تصل إلي».

وعلى المنوال ذاته يبعث "علي بن أبي طالب" بوصية إلى جيشه في الرسالة التاسعة يقول فيها: «فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبل الأشراف، أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم ردؤا، أو دونكم مردا»[1].

يبعث المخاطب رسالة توجيهية مفادها تنظيم المعسكر بالشكل الذي تقتضيه خطة الحرب، والمخاطب ملزم ــ كما تقول "**أوركيوني**" ــ بإعطاء المعلومات اللازمة التي بحوزته عن موضوع الخطاب والتي من شأنها أن تنفع المخاطب (المتلقي)[2] .

انبنت هذه الرسالة رغم قصرها على سلم من الأفعال الكلامية تتفاوت درجة تأثيرها بالنظر إلى الصيغ التي توجهه، تنظم إلى قائمة أفعال الحكم **Vérdictifs** بتصنيفات "**أوستين**"، وأفعال الحكم تتأسس بمجرد إصدار الحكم من طرف السلطة القائمة على النفوذ

[1] نهج البلاغة، ص207.

[2] C.K.Orecchioni ,L'implicite, Armande colin, Paris, 1986, p 220.

والمعترف بها رسميا، أو من طرف السلطة الأخلاقية . السلطة في هذا المقام هي سلطة نفوذ وأخلاق بالنظر إلى شخص المرسل، فصاحب السلطة الأمرية هو الإمام والخليفة والراعي والمربي، كان له حكم دولة من أكبر الدول آنذاك.

يجدر التذكير إلى أن "**أوستين**" ــ وكما أشرنا إلى ذلك سابقا يقسّم الفعل الكلامي الكلي **Acte de langage intégral** إلى ثلاثـــة أقسام : فعل الكلام /التلفظ **Acte locutoire** ، الفعل الكلامي **Acte illocutoire** ، والفعل التأثيري **Acte perllocutoire** .

وينقسم فعل الكـــلام/ التلفظ بدوره إلى الفعل الصوتـــي **Acte phonetique**، والفعل الانتباهي/ التركيبي **Acte phatique** ، والفعل الدلالي الإيحائي **Acte rehetique** . أما الفعل الكلامي / الإنجازي **Acte illocutoire** فقد صنفه "**أوستين**" في مجموعات وظيفية حصرها في خمسة محاور رئيسية:

1 ــ أفعال الحكم : **Verdictifs**

2 ــ أفعال الممارسة: **Exercitifs**

3 ــ أفعال الوعد: **Promissifs**

4 ــ أفعال السلوك: **Comporatifs**

5 ــ أفعال العرض: **Expositifs**

ويمكن تمثيل مشروع "**أوستين**" بالخطاطة التالية:

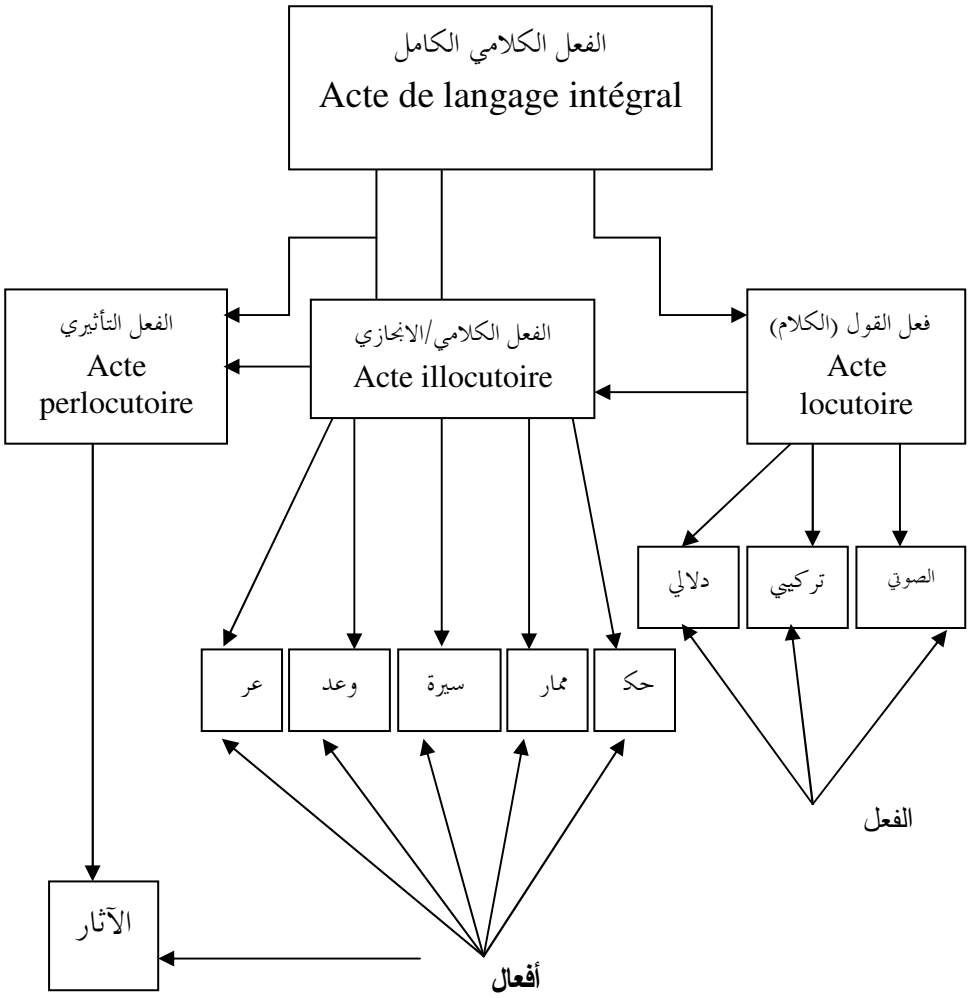

والأفعال الكلامية المبثوثة في هذا الخطاب وغيره من الخطابات يمر على هذه السلسلة من التقسيمات. فكل فعل كلامي هو في الوقت ذاته فعل كلام، أي فعل قول، وفعلا كلاميا إنجازيا، و فعلا تأثيريا، رهين التحقق، والتحقق لا يقتضي التحقيق على أرض الواقع فهو بمجرد النطق به يعتبر فعلا متحققا، والآثار رهينة استجابة المخاطب (المتلقي).

إن أفعال الحكم في هذه الرسالة تفرض على المتلقي القيام بفعل معين هو في هذا المقام وكما أسلفنا الذكر يتعلق بتنظيم معسكر المسلمين بتهيئة المكان المناسب لنزولهم.

ولأن مفاهيم التداولية كما يقر بذلك علماء الغرب، وعلماء العرب تقتضي النظر إلى أحوال المخاطبين أثناء الممارسة الفعلية للأقوال، فإن سلطة الآمر تستمر دائما على طول مسار الخطاب الترسلي، لتتحكم في إنجازية الأقوال دائما سلطة الأمير، القائد، الآمر في مقابل الجيش المأمور.

يتأكد هذا التعالي للأمير ــ بغض النظر عن كونه أميرا ــ من خلال الفعل الكلامي الدال على الحكم وهو قوله : «فليكن معسكركم في قبل الأشراف»، بصيغة الأمر الصريح الواضح المجسد بصيغة لام الأمر(ليكن)، وفعل الأمر«معنى يدل على حدث مقترن بالطلب، يطلب فيه وقوع الفعل من الفاعل المخاطب»[1]، فالخطاب توجيه مباشر وصريح، يشرح المرسل ــ بنمط حجاجي ــ سبب إصداره لمثل هذه الأوامر التي يثبت من خلالها حرصه على رعيته و جيشه من هجمة العدو «كيما يكون لكم ردؤا و دونكم مردا» كاستدلال و برهنه عن كونه إنما يبغي النصح، و كاعذار للأوامر السابقة. وفوق ذلك هو نمط تعبيري مهذب، يهدف إلى كسب ثقة الجيش. أما قيمة ودلالة الفعل الكلامي المبطنة فتتمثل في التحذير والتنبيه من الغفلة، بالنظر إلى المؤسسة التي انبثق عنها هذا الفعل الكلامي فاللغة وضعت آليات جعلت الكلام أو العلامات اللغوية تتحول بمجرد التلفظ بها إلى أفعال لغوية ذات امتداد اجتماعي.

و تستمر سلسلة الأمر والتنبيه في الرسالة ذاتها محذرا ومنبها جيشه قائلا : «ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال، ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم إلا غرارا أومضمضة»[2].

إن التلفظ الإنشائي هو إنجاز للفعل المذكور في الملفوظ، والفعل وظيفة هذا اللفظ وليس نتيجته، وإذا كان للشخصين فائدة في ممارستهما للكلام فإن كل طرف منهما سيجني ثمار ذلك إذا تحقق التبادل، وعكس ذلك مآله الفشل، وهذا ما يسمح لنا بالقول إن تبادل الكلام نشاط اجتماعي متحقق[3].

[1] أحمد قبش، الكامل في النحو والصرف والإعراب، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974، ص11.

[2] نهج البلاغة، ص207

[3] C.K.Orecchioni ,L'implicite, p 197

و المخاطب "علي بن أبي طالب" هنا حين يطلق العنان لسلسلة الأفعال هذه لا ينتظر ردا من المتلقي. إذ أن قوة إنجازها في ذاتها وفيما تمتلكه اللغة من قوة ومقدرة على الحصول على الإذعان والالتزام، خاصة وأننا أمام خطاب المتلقي فيه غائب، أو أنه حاضر ولكن لا يجيب كما تقول بذلك "**أوركيوني**". والخطاب الإنشائي لا يصف الواقع، إنما يدفع إلى التأثير فيه وتغييره. والأساليب الإنشائية هي أبرز مظاهر اللغة التي تعرب عن حيويتها[1].

إن الجمل على هذا النمط لا تبحث لنفسها عن متلق مصدق أو مكذب، فلشكلها وبنيتها وصيغتها قوة تمارسها، وهي بالضرورة تتحقق، قد تنجح وقد تخفق، ولكن وكما يقول "**منغونو**" فالفعل الكلامي يتحقق وإن لم تثبت نتيجته في الواقع، فمجرد إصداره يضفي عليه مشروعيته[2].

ومقام هذا الخطاب ــ ومع كل فعل كلامي إنجازي ــ يراعى فيها شروط النجاح التي تقتضي على سبيل المثال ــ وكما أسلفنا الذكر ــ أن تكون السلطة الآمرة في موقع يخول لها سلطة إعطاء الأوامر. فالشرط الأولي مؤسس، فهناك قواعد تأسيسية وأخرى مساعدة، فلا يمكن الحديث عن نجاح فعل كلامي في هذا المقام دون أن تكون هناك حرب وجيش وعدو، وإنه هناك إعداد لهذه الحرب، برسم خطط وتهيئة عدة وسلاح وما يتبعه من استراتيجية واضحة، والوصية كانت آخر مرحلة من هذا الإعداد.

يمزج المرسل في هذا الخطاب بين الأفعال المباشرة وغير المباشرة، معتمدا التصريح والإيحاء، مع الأمر المختفي وراء التقرير«لتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين»، والأمر الصريح مع الفعل الإنشائي الأولي «واجعلوا لكم رقباء» كأمر يفيد التنبيه. والتنبيه شكل من أشكال التحذير غير المباشر ليتبع بالتحذير الصريح من خلال فعل الحكم بقوة اسم فعل الأمر(إياكم) الذي يحمل دلالة (احذروا)، رغم أن اسم فعل الأمر(إياكم) أكثر قوة من فعل الأمر (احذروا). تنبيه على خطر التفرق، متبوعة بجملة أوامر متعلقة بالتنبيه السابق، لتنتظم جميعا في شبكة الأوامر التحذيرية أو التنبيهية.

[1] خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة ــ دراسة نحوية تداولية، ط1، نشر مشترك: جامعة منوبة ــ المؤسسة العربية للتوزيع، تونس 2001، ص16.

[2] D.Maingueneau , Pragmatique pour le discoure littéraire, Bordas, Paris,1990, p 9

إن الغرض المتضمن في القول ــ ويقصد به "**طالب هاشم طبطباني**" بالفعل الكلامي الإنجازي ــ يمكن تحقيقه بدرجات من الشدة متفاوتة، كذلك الحالة النفسية يمكن التعبير عنها بدرجات من الشدة متفاوتة، فالمتكلم الذي يقدم على طلب يعبر عن رغبته بقيام المستمع بالفعل المطلوب، لكنه إذا توسل واستجدى أو تضرع فإنه يعبر عن رغبة أقوى من التي يعبر عنها بالطلب المجرد[1].

وعلى هذا النحو امتدت سلسلة الأفعال الكلامية في الرسالة السابقة، فكان مسار القوة الإنجازية يتضاعف مع كل فعل كلامي لاحق، وكانت القوة الآمرة تعلو بتتابع البنيات التركيبية، من خلال ما نعرفه عن نظام الصيغ في اللغة العربية. فالأمر الموجه مباشرة بأفعال الأمر أكثر شدة من الأمر المقرون باللام الأمرية الطلبية واسم فعل الأمر (إياكم) دلالته أشد وأقوى من فعل الأمر الصريح. فتتمظهر الأفعال الكلامية بالتدرج من الأدنى قوة إلى الأشد قوة :

(لتكـــــــــن ← اجعلـــــــــوا ← إياكم)

وفق الشكل التالي:

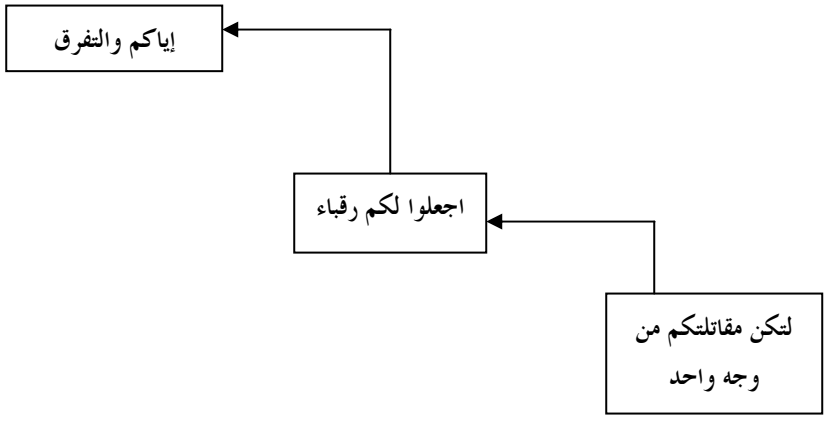

[1] طالب هاشم طبطباني، نظرية الأفعال الكلامية، ص70.

ويظهر التصريح أكثر بقوى أفعال الكلام من خلال رسالة بعثها إلى أمير من أمراء جيشه، يقول فيها: «وقد أمرت عليكما وعلى من في حيزكما "مالك بن الحارث الأشتر"، فاسمعا له وأطيعا، واجعلاه درعا ومجنا فإنه ممن لا يخاف وهنه ولاسقطته ولا بطؤه»[1].

بعد الإقرار ببيعة أمير جديد يأمر المرسل مخاطبيه بالسمع له والطاعة، والثبوت إلى جانبه. والأمر حرص على مصلحة الولاة والرعية، إذ يهدف المرسل إلى إعطاء المسؤوليات لمن هم أهل لها. ولأن "مالك بن الحارث الأشتر" معروف بالشجاعة والقوة فقد خولت إليه سلطة الإمارة.

إن "عليا" يشرح ودائما بأسلوب حجاجي* سبب إمارته لمالك بن الحارث الأشتر رغم أن مكانته وتعاليه لا يجبرانه على الاعتذار فأقواله أوامر تطاع، ولكنه يحاول ــ وكما عرف عن حكمته ــ أن لا يجرح مشاعــر الولاة والرعيــة. فلم يستبــدل شخصا مكــان آخر حبا فيه أو تفضيلا له، لكن اقتضاء المسؤوليات هو الباعث وراء هذه التعديلات، لما فيه من خير وصلاح للأمة. وعلى ذلك ــ وبهذا الاستدراج الاستدلالي الذي يبني عليه "ابن أبي طالب " شكله الخطابي لأفعال الكلام ــ الأوامر تحمل في جانبها المتحرك مطالبا وتخفي وراءها معالم النصح والإرشاد سواء في تعامله مع الولاة والجنود، أو في تعامله مع أبنائه من خلال وصاياه، في جمل أغلبها لم تستخــدم لوصف الواقـــع، فهو في موقف اضطراري لا يسمح له بذلك، ولكن كانت تستخدم لتغيير هذا الواقع، ودور الأفعال الكلامية هو التأثير في العالم وتغييره[2].

من الجوانب الأساسية التي اهتم بها "**أوستين**" في نظرية أفعال الكلام إنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية، وتختلف عما عرفناه من علماء الدلالة اللغويين وخصوصا البنيويين منهم، ومن الجديد الذي يخالف به الفلاسفة الكلاسيكيين ويوافق به أسلافه من فلاسفة التحليل إدخاله مفهوم القصدية **Intentionnalité** في فهم كلام المتكلم، وفي تحليل العبارات اللغوية. وتتجلى مقولة القصدية بالخصوص في

[1] نهج البلاغة، ص208.

* وتجدر الإشارة إلى أنه هناك رؤى تدعو إلى إدماج الحجاج ضمن ظاهرة أفعال كلام.

[2] آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الديندعفوس و محمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2003، ص30.

الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية. فالفعل الكلامي الذي غدا نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية يعني التصرف أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام[1] .

واعتمادا على هذه المؤشرات من سياق ورتبة السلم الاجتماعي ــ المؤسساتي المحكوم بالمقصدية نستقرئ دلالة الأفعال الكلامية في وصية من وصاياه لولديه "الحسن" و"الحسين" بأفعال كلامية أمرية، تتشابك بمعاني الحب والحنان والخوف من الضياع يقول: «وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئا، ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا تضيعوا سنته. أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذم»[2].

لتتغير وضعية الخطاب في هذا المقام من أمير لمأمور إلى أب لابن. ومن صرامة الحكم والمسؤولية إلى صرامة المربي، وحنان الأب بإنشائية تتمحور حول الأمر والنهي، وتتقارب قوى أفعال الكلام في القطعة استدراجا من النهي إلى الأمر. وكلها تحمل دلالة الالتزام (لا تشركوا، أقيموا، أوقدوا)، وأفعال الكلام كما يقول "**منغونو**" تظهر في الأحاديث وتنعكس على الأحاديث ذاتها[3] ، فنحن حين نستخلص من الرسالة هذه الأفعال الكلامية إنما نقصد إلى رؤية تأثيرها وانعكاسها على الخطاب ذاته، مع مراعاة القصدية الواضحة التي تدعو في هذا السياق إلى الالتزام بأوامر الدين، والتمسك بأكبر عموديه: وحدانية الله، وسنة رسوله.علما أن الأمر والنهي يتعلقان دائما بالأفعال و« ضرورة وقوع الأمر والنهي بالفعل يعود إلى كونهما عملين يقومان على توجيه المخاطب إلى أمر لإنفاذه وأدائه في الكون الخارجي»[4].

والوظيفة ذاتها تحملها الرسالة الثالثة والعشرين كوصية لولده الأكبر "الحسن"، يقول في مقطع منها: «أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا، وأين

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة أفعال الكلام في التراث اللساني العربي، ص40.
[2] نهج البلاغة، ص212.
[3] D.Maingeuneau, Pragmatique pour le discoure littéraire, p 113
[4] خالد ميلاد الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص 132.

حلوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلوا ديـــار الغربة وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم، فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك»[1].

لتتواصل الرسالة على طولها مبنية على سلم من الأوامر، وإن غابت الصيغة المستعملة خصيصا للأمر، بلفظ (آمرك) إلا أن دلالة الفعل الكلامي واضحة لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير، وقوة الفعل الكلامي مع الأمر تكمن في فعله الموجه نحو المخاطب (أحي، أمت، قوي، حذر) لتتحقق أفعالا كلامية دالة على الحكم بمنظور "**أوستين**"، والتلفظ الإنشائي(الأمر مثلا) هو إنجاز للفعل المذكور في الملفوظ، والفعل وظيفة هذا اللفظ و ليس نتيجته.

فـــ "**أوستين**" في بداية مراحل بحوثه قسم الفعل الكلامي إلى إنشائي وتقريري، وتنازل عن هذا التقسيم فيما بعد، و يميز "**أوستين**" في الملفوظات الإنشائية بين نوعين منها:

قسم يكون فيه الفعل المعبر عنه غير صريح، أو غير مباشر، ويسميه بالإنشائي الأولي.

وهو الشكل الوارد في هذه الوصية (أحي، أمت، قوي، حذر)، وهذه الملفوظات عند "**أوستين**" قابلة للتوضيح والتفسير بواسطة الملفوظات التالية:

- آمرك بإحياء قلبك بالموعظة.
- آمرك بإماتته بالزهادة.
- آمرك بتقويته باليقين.
- آمرك بتحذيره من صولة الدهر.

و يسمى هذا النمط من التعبير بالإنشائي الصريح أو المفسر.أي أن بنية القول هي في أصلها تشتمل على الإنشاء.

ولكن نعتقد أن اللغة العربية لا تحتاج إلى هذا التقسيم، وحتى الملفوظ(أحي قلبك بالزهـــادة) مثلا تحتوي بنيتـــه على الأصل الدال على الإنشاء، باعتبار التقســـيم النحوي للأفعال. (فأحي) فعل أمر. وورود صيغة الأمر قبله قد يكون حشوا في مواضع، وقد

[1] نهج البلاغة، ص 221.

يكون له وضعا بلاغيا ومقاصد دلالية في مواضع أخرى كالتأكيد على فعل الأمر، أوالمبالغة، أو التهديد.

إننا لا نجزم أن "الحسن" أخذ بنصائح والده و حملها جميعا محمل الجد، وإن كان سياق المقام، يثبت لنا أنه كان صورة عن هذه الوصايا، ولكن وبمجرد إطلاق "علي" لهذه الأوامر كأفعال كلامية تنبيهيه- تحذيرية، يكون قد أنجز فعلا دون أن يربط نتائجه بالواقع. وإذا كانت الآليات التداولية تسمح لنا و إلى حد ما اعتماد التأويل ــ فيمكن القول بأن "عليا" بهذه الوصية قد غيّر وضعيته على الأقل، بتأثيره على العالم المحيط به بمجرد أن تلفظ بهذا الخطاب. ما حوله مبدئيا من السكون إلى الحركة. ثم إنه أزاح ثقلا، فالوصية قاعدة تربوية، والتربية مسؤولية، فهو بذلك يمنح ولده حقا من حقوقه، خاصة وأنه أكبر أولاده، وإليه تسند مسؤولية الوصاية عليهم، وكفالتهم حال وفاته (وفاة المرسل الأب). ومنحه هذا الحق لولده، هو أكبر عمل لغوي وأشده قوة وإن لم تثبت ممارسة الفعل في الواقع لكن تظل إنجازيته متحققة بمجرد تلفظه، فضلا عن وصوله إلى الابن.

و تحققه في الواقع رهين توفر الشروط التأسيسية أهمها بعد حضور قطبي الإرسال والتعالي الأمري كشروط أولية ــ فصلنا فيها سابقا ــ أن يكون الابن متقبلا للخطاب، صالحا، تقيا، يتحمل عبئ الأمانة.

قســم "**أوستين**" في المرحلة التالية من بحوثه الفعل الكلامي الكامــل **Acte de discours intégral** إلى ثلاثة أفعال فرعية: 1- فعل الكلام (القول) ، 2- الفعل الكلامي (الإنجازي) ، 3-الفعل التاثيري .

ولا يمكن للفعل الإنشائي ــ كما يقول "**أوستين**" ــ أن يكون ناجحا وتاما ومنتهيا إلا إذا أحدث تأثيرا على المتلقي ليفهم المعنى وقيمة الصيغة[1]. فيتعلق هذا الفعل التأثيري أساسا بالمخاطب الذي تتوجه إليه الإرسالية، وللفعل القدرة على إنتاج آثار ثانوية مترتبة عن الفعل الكلامي قد يمتد أثرها بحيث يتجاوز اللحظة التي قيل فيها، والإرسالية مع الفعل التأثيري تسعى إلى إقناع المخاطب بفعل ما ومن ثم استجابته، ويمكن أن نمثل الفعل التاثيري بهذه الخطاطة :

[1] Austin, Quand dire c'est faire, p 124.

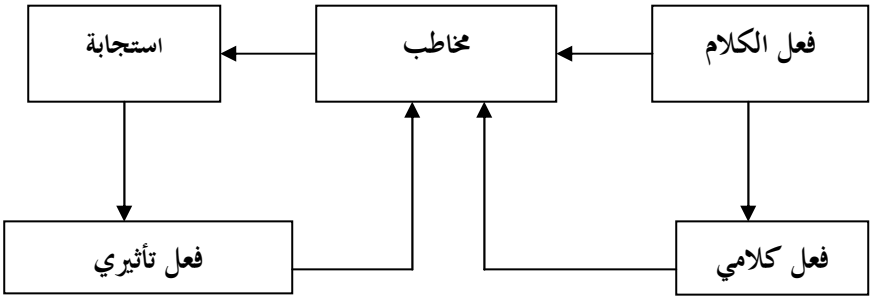

ولا تظهر استجابة "الحسن" الابن في هذه الرسالة. إذ المُحاور(بفتح الواو) في الخطاب الترسلي حاضر- غائب، أو حاضر ولكن لا يشارك في الخطاب، واعتمادا على سياق المقام الذي يتعلق هنا بالمرجعية التاريخية، وما نعرفه عن تاريخ وحضارة الدولة الإسلامية والخلفاء الراشدين، خلصنا إلى أن الفعل الكلامي مارس تأثيره على المخاطب، و"الحسن" اقتنع بوصية والده، و نفذها على الأقل لمدة ستة أشهر، قبل أن تتطور معالم الفتن، و يتنازل "الحسن" عن إمارة الدولة الإسلامية لصالح "معاوية"، درءا للمفاسد، ودفعا لأخطار الحرب، وهذا التنازل في ذاته عن الخلافة والأمارة، استجابة لوصية الوالد التي تدعو إلى التقوى والزهد، والتريث وحسن البصيرة.

كما نلحظ أن هذه الوصية يقترن فيها الفعل الإنشائي الأمري بالاستفهام التقريري، وقد يطلق عليه مصطلح الاستخبار التقريري ومنهم من يعتبره استفهاما إنكاريا وإن كان الإنكار يحمل دلالة أخرى غير هذه، وإذا كان الاستفهام عموما هو «طلب خبر ليس عندك»[1]، فإن التقريري منه يخرج عن هذه القاعدة، إذ السائل يطلب خبرا هو عنده. ويعرف الأصوليون الاستفهام التقريري بقولهم: «حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عندك»[2] فظاهر الفعل الكلامي في هذا المقام أمر وطلب، أما غرضه الإنجازي فهو تقرير: «فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، وأين حلوا ونزلوا؟ ».

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص162.

[2] مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب ، ص163.

والمرسل يدرك الإجابة يقينا إذ يهدف إلى إثباتها وتقريرها كحقيقة أكيدة قصد التأثير في المتلقي الابن، ولم ينتظر منه ردا، لأنه يردف الاستفهام بالجواب: «فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلوا ديار الغربة».

إن الحديث عن الموت يثير فينا الرهبة، لاسيما إن تفعّل بأسلوب خبري تأكيدي ينطوي على معاني الخوف والأسى، وهي مشاعر يحاول إثارتها في ولده من خلال إنجازية أفعال الكلام المباشرة وغير المباشرة قصد التحذير والتنبيه.

تنظم الأفعال الكلامية الجزئية (الأمرية، والطلبية، والتقريرية، والاستفهامية) في هذه الرسالة والرسائل السابقة ضمن لائحة الدلالة العامة المفعلة بفعل كلامي تام يجمع هذه النماذج المستقرأة وغيرها في مدونة "نهج البلاغة" في خطاب مفاده النصح والإرشاد كمستوى إنجازي قوي له قيمة أكبر في مقابل خطاب التهديد والوعيد.

إن خطاب العنف المدثّر بغطاء سلطة الأوامر يتجه بالخصوص في هذه المدونة نحو المتلقي المتمرد على إمارة الدولة الإسلامية، وخلافة الإمام علي وهو"معاوية بن أبي سفيان" كما يتجه إلى الولاة الذين تأكد من خيانتهم باغتصابهم حقوق الرعية.

تعتمد انجازية الأفعال على قوة المؤسسة التي ينتمي إليها "علي" باعتباره الحاكم الآمر والناهي، وإن كانت ردود الأفعال تظهر عدم خضوع بعض أصناف المتلقين لخطاب التهديد الذي يتلقونه، وعلى الخصوص "معاوية"، بمحاولة إخضاع المؤسسة له بارتقائه غير الشرعي إلى مكان الإمارة كغريم لـــ "علي" مقابل له. ثم إن "معاوية" لم يكن يعترف بـــ "علي" كسلطة أمرية ــ تنفيذية، ويزعم لنفسه الريادة في أمور إقامة أركان الدولة الإسلامية، يظهر من خلال رد "علي بن أبي طالب" في المقطوعة التالية: «ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء. وأحذرك من أن تكون متماديا في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة، وقد دعوت إلى الحرب، فدع الناس جانبا واخرج إلي، واعف الفريقين من القتال لتعلم أينا المرين على قلبه، والمغطى على بصره! فأنا أبو حسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخا يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي، ما

استبدلت دينا ولا استحدثت نبيا وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين»[1] .

من المؤكد في هذه الحالة أن الفعل الكلامي سيكون فاشلا، ولا يتعلق الأمر هنا بخطاب عملي إنما بأفعال الكلام التي تخص "معاوية" والتي نستقرئها من خلال رد "علي" فالفشل يتعلق بـــ"معاوية" الذي يحاول الارتقاء بنفسه وإصداره أوامرا تُوجّه نحو سلطة الدولة والتي أحدثت تأثيرا سلبيا بدعوته إلى القتال.

لقد استخرج "**أوستين**" بعض الشروط التي تحقق للفعل الكلامي النجاح وصنفها إلى ثلاث مستويات:

1 ــ الشروط الأولية: وهي الشروط التي تحدد وضعية المتكلم التي تسمح له بفعل خطابي ما وهذا التحديد يجعله أهلا لإصدار ملفوظه إذ يجب على المتكلم الذي ينجز فعلا أن يتوفر على صلاحيـــــة وسلطـــــة تخــولان له إنجاز هذا العمل ويتحتم في ملفوظه أن يكون منتجا في مقام ملائم لفعل الخطاب، وأن يكون منجزه في وضع اجتماعي يخول له سلطة هذا القول.

2 ــ الشروط الجدية: وفيها يلتزم المخاطب بالصدق في أقواله والتأدية غير الجدية للفعل الكلامي لا تعني الفشل ولكن سيكون المتكلم قد ارتكب إثما والذي يقر بالفعل الخاطئ فهو كاذب.

3 ــ الشروط الأساسية: إن الشخص الذي ينجز فعلا ما يكون مرتبطا ببعض الأفكار والمقاصد وهو يعبـــــر عن مسئوليته بخصوص صدق ما يقول وهذا الالتـــــزام مسألة سلوكية وهو سلوك خاص مستقل عن الصدق والحقيقة إلا أنه جوهري وأساسي بالنسبة للملفوظ ويمكن للمتكلم أن ينتج ملفوظا يتناقض أو يتعارض مع معتقداته ومقاصده والذي يناقض أقواله يعتبر قاصما لالتزامات التزمها[2].

و لو أردنا أن نُخضع منجز الفعل الكلامي لهذه المقاييس لوجدنا أن الإمام "علي" تتوفر فيه هذه الشروط فوضعيتـــــه الاجتماعية والسياسية تخولان له إصدار الأوامر

[1] نهج البلاغة، ص206.

[2] علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري، من البنية إلى القراءة، دط، دار الثقافة، الدار البيضاء ص.ص 72، 73.

والمطالب والنواهي كشروط أولية متعلقة بالوضع المؤسساتي. كما أن قيمه الدينية والخلقية تثبت لنا مدى التزامه وصدقه وجديته. أما مقاصده كشروط أساسية فهو تهدئة الوضع وإعادة السلم والطمأنينة لأركان الدولة الإسلامية ثم إقناع "معاوية" بضرورة الخضوع لسلطة الخلافة طوعا أو كرها.

ولكن ورغم توفر كل الشروط التي تحقق نجاح الفعل الكلامي تظل تلك الأفعال رهينة تمرد "معاوية" وأتباعه فلم يتمكن "علي" من السيطرة على الأوضاع وإخضاعها له بالشكل الذي كان يريده، رغم لهجة الرسالة الشديدة وقوة أفعال كلامها حيث استهلت باستفهام استنكاري قوته الكلامية في رفض إدعاء "معاوية"، فهو ليس من ساسة الرعية ولا من ولاة أمر الأمة. والاستنكار هنا قصد إلى الحط من قيمة المخاطب وهو شكل من أشكال السخرية والاستهزاء بالنظر إلى وظيفة اللغة وأفعال الكلام. فضلا عن كونه فعلا كلاميا غير مباشر يقصد إلى قوله: لم تكونوا ساسة الرعية يا "معاوية". وكما يقول "**سورل**" «من الممكن إنجاز فعل كلامي دون استعمال طرق صريحة»[1].

وتعود هذه اللامباشرة إلى أسباب ودوافع عدة أهمها ما يقر به التداوليون والبلاغيون العرب أن «التلميح أبدا أبلغ من التصريح». فضلا عن إرادة التمويه على المتلقي كما قد يقصد منه التعبير بلطف و أدب فقولك:

ــ هل تستطيع أن تناولني الملح من فضلك

ليس مثل قولك: ــ ناولي الملح.

رغم أن الجملتان تحملان معنى الطلب، ولكن الجملة الأولى تعبير حضاري مؤدب كما تواضعت على ذلك المؤسسة الاجتماعية.

إن "عليا" يدرك أن "معاوية" ليس من آل البيت ولا من السباقين في الدخول إلى الإسلام ولكن وكما يقول "**أوستين**" إن الفعل الكلامي ينتج عنه حتما فعل تأثيري وهذا الفعل التأثيري هو الغرض من وراء قوة الفعل الكلامي المتمثل في هذا المقام في الاستفهام. إذ به يسعى إلى إقناع المخاطب بأنه إنسان وضيع مدع وإن كانت لهم أسبقية فهي أسبقية ارتياد أبواب الشقاء بدلالة ضمنية.

[1] J.Searle, Les actes de langage, p 157

ليصرح بفعل كلامي مباشر يصنف ضمن لائحة الأفعال الدالة على الممارسة حسب تصنيف "**أوستين**" وتتعلق بإصدار حكم مناسب أو غير مناسب حول تصرف أو تبرير، وتستلزم هذه الأفعـــال أن الآخر مضطر لإنجـــــاز الفعل[1]. فيعيد المرسل الاعتبار لسلطة الأمر الزجرية «أحذرك أن تكون متماديا في غرة الأمنية»، كشكل من أشكال العنف التعبيري .

ليردف الفعل الكلامي السابق بجملة أفعال كلامية أمرية: « دع الناس جانبا ــ أخرج إلي ــ أعف الفريقين». ويختلف مقام الأمر هنا عن سابقه إذ ينبعث من موقف انفعالي ليضمر في طياته التهديد والوعيد، يعبر المرسل من خلاله عن ثقته بنفسه وأنه أهل لإصدار مثل هذه الأوامر فيكشف اعتمادا على التقرير الانفعالي قدرته في التعامل مع المسؤوليـــة المنوطة إليه باعتباره خليفة للأمة الإسلامية. والآليات التداولية تسمح للمتلقي بتأويل مثل هذه الملفوظات في حدود ما يسمح به السياق ومقصدية المرسل التي يبثها الخطاب.

و بالانفعال ذاته يوجه المرسل جملة من الأفعال الكلامية الدالة على التوجيه حسب تقسيمات "**سيرل**" الذي عارض مشروع أستاذه "**أوستين**" واقترح تقسيما آخر مغايرا نتبينه من خلال الخطاطة التالية علما أن "**سورل**" لا يهتم إلا بالفعل الكلامي الإنجازي:

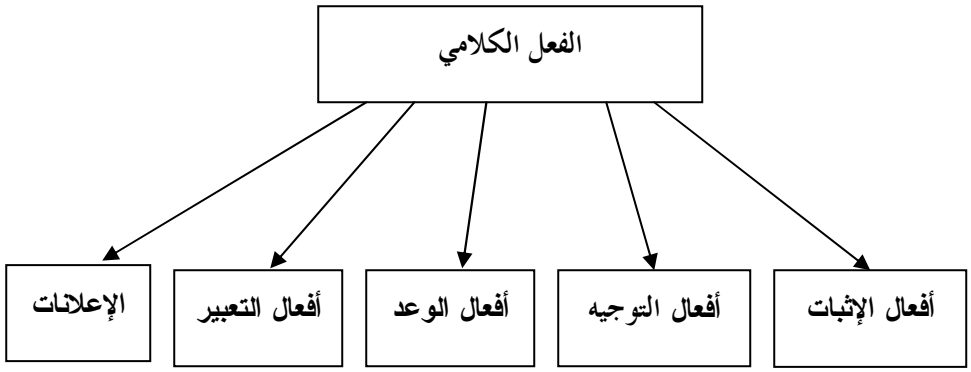

[1] Austin, Quant dire c’est faire, p 157.

وأفعال التوجيه عند"**سيرل**" غايتها حمل الشخص على القيام بأمر معين أو نصحه أو الإلحاح عليه.

يتجلى هذا من خلال قطعة من الرسالة الثانية والعشرين والتي كتبها لـــ"معاوية" كجواب له، يقول في مقطع منها: «وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، لقد أضحكت بعد استعبار! متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين، وبالسيف مخوفين؟! فلبث قليلا يلحق الهيجا حمل، فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشميـــــة، قد عرفت مواقع نصالهـــــا في أخيك وخالك وجدك وأهلك **وما هي من الظالمين ببعيد**»[1].

يقر النفي الذي استهلت به المقطوعة على معاني الأسف والأسى لفشل الخطاب السلمي في معالجة الخلافات السياسية الواقعة في أركان الدولة الإسلامية بين المرسل الواقعي "علي بن أبي طالب" والمتلقي الواقعي في هذا الخطاب وهو "معاوية بن أبي سفيان".

وبخفوت معتبر لخطاب التهديد والوعيد الذي ينبثق مع المقطع الموالي لانطوائه على معاني السخرية والاستهزاء «فقد أضحكت بعد استعبار» كفعل إنشائي اقتضى إنجاز الفعل المذكور في الملفوظ السابق المتعلق بفعل الإضحاك . فكما يقول "**منغونو**" فالفعل الكلامي يتحقق وإن لم تثبت نتيجته فمجرد إصداره يضفي عليه المشروعية[2]. ولا يهم إن كان فعل الإضحاك واقع على الحقيقة أم على المجاز مادام اللفظ حقق إنجازيته.

هدأت سلطة الأمر الموجهة نحو "معاوية". استحكم على الموقف خطاب التحاور بسبب عدم إقرار "معاوية" واعترافه بسلطة الأمر المخولة لـــ"علي". فتذبذبت وضعية الخطاب فمرة يكون فيها "معاوية" محاورا بأوامر أغراضها الحقيقية تنزل إلى مستوى الالتماس و الالتماس يتحقق عندما يكون الآمر والمأمور في الرتبة نفسها ومرة بأوامر زجرية عنيفة ما يقتضيه مقام السلطة.

[1] نهج البلاغة، ص219.

[2] D .Maingueneau, Pragmatique pour le discours littéraire, p 9.

يتحكم في هذا التذبذب مقام المناصب الكلامية المنبنية وفق قاعدة مؤسساتية محكمة ومحددة من خلال الاستفهام الذي يفيد مع خطاب التهديد والوعيد والمختفي وراء الإنكار مظاهر السخرية والاستهزاء، سواء مع العبارة السابقة أو مع قوله «متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين، وبالسيف مخوفين؟!».

وللفعل الكلامي قوته في منح القيمة للذات المتكلمة العاملة، وهذا الاستفهام الاستنكاري سبب في تحقق الفعل السابق(فعل الإضحاك) فهو يقر من خلال سلسلة من الأفعال الكلامية غير المباشـــــرة أنه وبنو عبد المطلب لا يخافون بطشة السيف ولا ظلم العدو فهم مهيئون لاستقبالهم في أي وقت.

توصلنا إلى هذه النتائج اعتمادا على مبدأ التعاون الغرايسي ومقتضاه إجمالا أن يتعاون المتخاطبون قصد الوصول إلى الغرض المطلوب من دخولهما في التخاطب وهذه القواعد هي: قــعدة الكــم **Quantité**، قـــــاعدة الكيف **Qualité**، قــاعدة العلاقــة **Relation**، قاعدة الصيغة (الأسلوب)**Modalité**.

ومن خلال هذه القواعد يمكن شرح عمل الأفعال الكلامية غير المباشرة. وكعادته لا يحتاج المرسل إلى تلقي جواب إذ به يبعث بخطاب يتحقق وقوة الاستفهام نتيجته في الإنكار أما قوة الأمر فنتيجته في الإذعان.

لقد أثرت رسائل "معاوية" على "علي" يظهر هذا التأثر من خلال ردود أفعال" علي" الواضحة على خطاباته، وعليه فقد تحقق الفعل الكلامي المضاد رغم لغة الزجر والإهانة والتحقير. إلا أن "عليا" قبل لغة الحوار وهو نزول من سلطة عليا آمرة ناهية متحكمة في زمام القول والعمل إلى سلطة كان يستوجب أن تكون سلطة الاستجابة والطاعة.

يختلف خطاب التهديد والوعيد الممارس في حق "معاوية" عن خطاب التهديد والوعيد الذي يسلط على الولاة المارقين بسبب اختلاف ظروف التحكم والمقاصد التي تسهم في إنتاج الخطاب وتحليل ملابساته فالخلاف بين"علي" و"معاوية" هي خلافات شخصية تتعلق بالإقتصاص من قتلة "عثمان" وخلاف يتعلق بالخلافة والأمارة.

أما العلاقة القائمة بين "علي" و"الولاة" فهي علاقة أمرية مقرة متعلقة بنظام دولة ورعاية مصالح الرعية، فتختلف الأفعال الكلامية بين الحالتين في الشدة والقوة باعتبار أن المؤسسة هي التي تزوّد هذه الأفعال الكلامية بالقوة المتحققة داخلها.

تنبسط هذه الفروقات من خلال هذه الرسالة القصيرة الموجهة إلى أحد الولاة يقول فيها: «وإني أقسم بالله قسما صادقا، لإن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر»[1].

و الرسالة رغم منتهى قصرها تحمل غرضا محددا هو التحذير، كفعل كلامي شامل تحدده الرسالة في كليتها بخطاب عنيف يقوم على التوعد باستخدام التأكيد من خلال فعل كلامي قوي هو القسم وما يتبعه من مؤكدات(إني،أقسم قسما صادقا، لإن، لأشدن).

والتأكيد غرض تواصلي يُستخدم لتثبيت الدلالة على مسمع المخاطب وهو من الأساليب العربية التي عني بها عناية فائقة فضلا عن كونه فعلا كلاميا من وجهة نظر التداولية والذي كان محل اهتمام الدراسات الغربية على الخصوص. يصنفه "**سيرل**" كفعل كلامي ينظم إلى لائحة أفعال الإثبات، التي تجبر المتكلم على الاعتراف بوضعه الجديد.

لقد قسم البلاغيون العرب الخبر إلى ثلاثة أضرب:

ــ الضرب الابتدائي: وهو ما لا يحتاج فيه إلى تأكيد.

ــ الضرب الطلبي: وهو الذي يحتاج إلى مؤكد واحد.

ــ الضرب الإنكاري: وهو ما يظم مؤكدان فأكثر.

يغلب هذا الضرب الأخير(الخبر الإنكاري) على الرسالة، فرغم محدوديتها إلا أنها انبنت وفق قاعدة المؤكدات، فحوت على عدد معتبر من المؤكدات اللفظية الأدواتية أهمها على الإطلاق القسم بالفعل الكلامي المباشر والصريح: (أقسم) المؤكد بدوره بشكل من أشكال التكرار المعنوي (قسما صادقا)، والأداة (إني) أي أنا ــ لا غيري– من سيتولى هذا الأمر، ومع (اللام) المؤكدة والمكررة مرتين(لئن، لأشدن). يحاول المرسل من خلاله أن يوثق كلامه من خلال شبكة المؤكدات هذه التي تضمر الوعد والتوعد، لمقاصد حاضرة غايتها رعاية مصالح الأمة والفعل الكلامي حسب "**ديكرو**" ليس بفعل حر ولا بفعل مجاني، فهو ليس حرا باعتباره يخضع لمجموعة من الشروط التي لابد من توفرها حتى يحق لنا الكلام بهذه الطريقة أو تلك، وليس مجانيا باعتبار أن كل كلام ينبغي أن يقدم كحافز مستجيب لحاجات ما أو هادفا إلى نهاية ما[2] .

[1] نهج البلاغة، ص211.

[2] O.Ducrot, Dire et ne pas dire _ principe sémantique-linguistique, Collection-savoir- sciences ,Herman,Editeur de sciences des arts,3éme édition, Paris,1991, p 8.

أما القسم كفعل كلامي فقد اختلفت الرؤى حوله ما بين النظرية العربية والنظرية الغربية، باعتبار مباشرته الإنجازية وقوته الداخلية التي تحققه، وفعل كلامي كالقسم – وفي هذا المقام– ناجح لا محال، خاصة وأنه يصدر عن ديوان له قوة الكلمة وصدق الوعد وقدرة التنفيذ.

لقد عدت العرب القسم من ضروب الإنشاء الطلبي وينقسم إلى قسمين: السؤال والإخبار.

فقسم السؤال هو ما كان جوابه متضمنا طلبا. أما قسم الأخبار فهو ما قصد به تأكيد جوابه وغرضه تأكيد الخبر[1].

والقسم الذي حوته هذه الرسالة هو قسم إخبار، إذ المرسل يؤكد ويجزم باستخدامه مختلف الأساليب التعبيرية، أن الوالي إن هو حاول اغتصاب أموال الرعية فلسوف يكون مآله العقاب، بل العقاب الشديد.

وبدوره يندرج هذا القسم الإخباري كبعد تداولي ضمن لائحة أفعال الوعد، اعتمادا على منظور "**أوستين**" و "**سيرل**" الذي لا يخالف أستاذه في تحديده لأفعال الوعد باعتبارها تلزم المتكلم بتبني سلوك معين والقيام بفعل ما.

ولا يكاد يختلف هذا الفعل الكلامي المبني على قاعدة التأكيد عن الفعل الكلامي المستقرئ من الرسالة التاسعة والعشرين التي أرسلها بدورها إلى عامل من عماله ــ وقد وقفنا عندها في مبحث سابق ــ يقول فيها: «أما بعد! فقد بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وعصيت إمامك وأخزيت أمانتك، بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس»[2].

تندرج الرسالة بدورها ضمن قائمة أفعال التأكيد التي تصنف في قسم التأكيد الإنكاري، وإن كان أقل حدة عن سابقه، لما فيها من عدم الثقة للقول المسموع، فـــ"علي بن أبي طالب" غير واثق بأن عامله فعلا اغتصب أموال الرعية. وأضرب الخبر تتحكم في إنشائه ظروف المقام وتأثير المؤسسة–كما أسلفنا الذكر– قوي على كل أصناف الأفعال الكلامية.

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 208.
[2] نهج البلاغة، ص237.

إن المخاطب هنا لا يجزم بأن الوالي اغتصب أموال الرعية بدلالة التقرير الوارد في المقطع الأول «بلغني عنك أمر إن كنت فعلته...» ولذلك لم يبلغ الخطاب الضمني- التعنيفي، والفعل الكلامي- التهديدي ــ التأنيبي حدة وعنف الخطاب السابق.

ولأن السلطة المؤسساتية هي سلطة قضائية فإن مقتضى الحال وراء عودة الفعل الكلامي الأمري الصريح في توجهه المباشر نحو الوالي«فارفع إلي حسابك» كأمر حقيقي يقتضي الطلب الحتمي برفع الحساب. وقوة هذا الفعل الكلامي في صيغة الأمر الموجهة، ليخرج الأمر التابع له«واعلم أن حساب الله أعظم» عن حقيقته إلى معاني اللوم والعتاب كفعل كلامي غير مباشر يختفي وراء إنشائية الأمر.

وحسب "**آن روبول**" و "**جاك موشلار**" نصل إلى تحديد دلالة الفعل الكلامي غير المباشر اعتمادا على تطبيق القواعد الدلالية للأفعال الكلامية باللجوء إلى المعارف المحصلة سلفا واستنادا إلى مبدأ التعاون الغرايسي[1]. ما يثبت أن الأمر في المقام السابق ما هو إلا لوم وعتاب. ومعروف في البلاغة العربية أن الأمر من الصيغ الأساسية للإنشاء الطلبي والتي تخرج عن مقتضى دلالتها الظاهرة إلى أغراض وإفادات تواصلية بحسب ما يقتضيه المقام، والمحدد هنا بمقام انفعالي وبخطاب التهديد والوعيد الذي يضمر التأنيب والتحذير في أغلب الأحيان.

إن" عليــا" – كما يقــر له التاريخ لم ينقض ثقته بالإنسان، وإن نقضها ببعض الناس في ظروف محددة، ومن عرف طاقة "ابن أبي طالب" على احتمال المكاره تأتيه من الناس وجلده العجيب في مقاساة الأهوال الناجمة عن الغدر والخيانة في الكثير من خصومه وأنصاره، ثم ما كان من أموره معهم جميعا إذ يأخذهم بالرفق والعطف- أدرك أن "عليا" كان عظيم التفاؤل بجوانب الخيــر التي تحتوي الإنسان، رغم أنه حين يثور يزمجر كالرعد وينطق بالتقرير، وكان له في ذم أهل الخيانة والغدر والظلم قول كثير، فما ذاك إلا لأنه يعترف ضمنا أن الإنسان يمكن إصلاحه ولو طال على ذلك الزمن، ولو لم يكــن له هذا الأمل في تقويم الاعوجاج لما استطاع احتمال ما لا يحتمل من مكاره الدهر التي جرها عليه المسيئون[2].

[1] آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 59.
[2] روائع نهج البلاغة، ص.ص 73، 74.

وقد حاولنا من خلال نظرية أفعال الكلام اكتشاف هذه الجوانب التي تخصه هو في ذاته، وتتعلق به في معاملاته مع المحيط والعالم الذي ينتمي إليه من خلال عينة من رسائله ولكن تظل جوانب من خطابه غامضة وعينات تحتاج إلى نظر آخر من الدراسات التداولية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: باللغة العربية

1 _ : نهج البلاغة ــ خطب و رسائل و حكم الإمام علي بن أبي طالب، تح صبري إبراهيم السيد، تقد عبد السلام محمد هارون، دط، مكتبة رحاب، الجزائر.

2ــ آيت أو شان (علي) : السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، دط، دار الثقافة، الدار البيضاء.

3 ــ رو بول (آن)، موشلار(جاك): التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت، .2003

4 ــ صحراوي (مسعود): التداولية عند علماء العرب ــ دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني ا لعربي، ط1، دار الطليعة، بيروت 2005.،

5ــ ضيف (شوقي): الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط1، دار المعارف، مصر.

6ــ قبش (أحمد) : الكامل في النحو و الصـــــرف و الأعـــراب ، ط2، دار الجيـــل ، بيــروت، .1974

7 ــ محمد الصلابي (علي محمد) : أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ــ دراسة شاملة ل شخصيته و عصره، دط ، دارالايمان للطباعـــة و النشــر والتــوزيع الإسكندرية.

8 ــ ميلاد (خالد) : الإنشاء في العربية بين التركيب و الدلالة ــ دراسة نحوية تداولية، ط1، نشر جامعة منوبة، تونس، .2001

9 ــ روائع نهج البلاغة ــ الإمام علي، تحق جورج جرداق، دط، دارالشروق ، بيروت، 1975.

المقالات:

طالب هاشم طبطبائي، نظريـــة الأفعـــال الكلامية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع: 98 ــ 99،1992

ثانيا: باللغة الفرنسية

1 - AUSTIN (J L), quand dire c'est faire, Edition du Seuil, traduction Gilles Lane, Paris, 1995 . 2 - DUCROT (Oswald) : Dire et ne pas dire_ principe sémantique-linguistique, Collection-savoir- sciences,Herman,Editeur de sciences des arts,3éme édition, Paris,1991.

3- MAINQUENEAU (Dominique) , pragmatique pour le discours littéraire , Bordas, Paris, 1990.

4 - ORECCHIONI(Catherine Kerbrat),L implicite, Armand Colin, Paris, 1986.

5 - SEARLE(J.R), Les actes de langage, Essai de philosophie du langage, collection Savoir, Harman, Paris,1972.